مقدّمة

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد:

يصف الاجتماعيون الأوربيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو -على الأصح- أمة مؤرخة.

ولا يعنون بذلك أنها أمة عريقة في التاريخ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الأجناس، وإنما يعنون أنها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الأنباء والروايات من السلف إلى الخلف بغير انقطاع في سلسلة الإسناد، وإنك إذا صادفت منها رجلاً في عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه إلى زمن بعيد، أو أن تعرف منه مالست تعرفه من كل فرد في كل أمة، ولو كان لها تاريخ مدّون مذكور.

وهذه مزية "مخصوصة" وليست بالمزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة. فإن من الأمم العريقة أمماً تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ إليه فإذا هو لا يذكرها بغير المراجعة والسؤال، وهذه هي الأمم التي توصف بأنها "حاضرية" مبتوتة أي تعيش فيما حضرها من الزمان، ولا تعني كثيراً ما بينها وبين الماضي من الأواصر في حياة الفرد أو حياة الجماعة.

تتجلى هذه الحقيقة في طريفة من الطرائف الممتعة التي رواها لنا الشاعر الأديب صاحب هذه الرحلة وهو يبحث عن منزل من المنازل التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته الخالدة حيث يقول:

فتوضحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رسمُها لما نسجْتها من جنوبٍ وشمألِ[1]

وقد دعاه إلى هذا البحث أنه اقترب من محلة تعرف باسم "مراة" وفي جوارها "التوضحية" وعندها غدير مشهور، وقيل له فيما قيل: إنما هي المقراة التي ذكرها حامل لواء الشعراء

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر. ونسجتها: محت آثارها (الدخيل).

في الجاهلية. ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال: "ليس بكثير على أربعة عشر قرناً أن تلحس قافاً واحدة فتحرف الكلمة من مقرات إلى مراة وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات..."[٢]

إلا أنه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال: ".. التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت: لاشك أن هذا من أهل القرية. فبدأته بالسلام ثم قلت له: يارجل، أهذه قرية امرئ القيس الشاعر المعروف؟.. فتدفق كالبحرالزاخر يدلي إلىّ بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتارخية المتصلة بهذه القرية. وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور، وأن الأول تميمي والآخر كندي، وأن امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين..".

قلت وأنا أقرأ هذه القصة لاجرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضرها، بل لاجرم أن تكون الرحلة كلها دليلاً على هذه الصفة الاجتماعية، فإنه لولا "الروح العربي" قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه في قلمه لما ظهر هذا "التاريخ العصري" في حيز الكتابة، ثم في حيز الطباعة. فما نخاله إلا صدى صادقاً يردد ما تجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة في أرجاء الجزيرة العربية، لأن الإله القدير الذي جعل الرمال سافية لا تبقى على أثر قد جعل سكان الرمال سجلاً واعياً لجميع الآثار، ولاسيما هذه الآثار الكبار، وهي تروي تاريخ الضيافة الملكية من الحجاز إلى نجد ومن نجد إلى الحجاز.

على أن الإله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الإسلامي كله سجلاً واعياً لأنباء هذين القطرين الخالدين، وأن يكون سكانهما بالأرواح والأذهان أضعاف من

---

(٢) لم يقل أحد أن مقراة هي مراة، وقد تابع العقاد المؤلف في هذا التخريج العجيب للكلمة ص ٦٣ من القلة والأعجب كتابتها بالتاء المفتوحة لتتفق مع مارآه . وقد رأيت شيئاً من هذا الفهم عند أمين الريحاني (١٨٧٦ ١٩٤٠) في كتابه ملوك العرب: ١١٨/٢. وتوضح المقراة: موضعان في عالية نجد وليسا في إقليم اليمامة انظر: معجم اليمامة ٢٠٨/١ - ٢١١. لأن منازل امرئ القيس كانت هناك (الدخيل).

سكنوهما بالعيان والجثمان. فمن من قراء العربية لا يحسب بين ساكني الحجاز في عالم الروح والضمير؟ ومن منهم لا يحسب بين ساكني نجد في عالم العاطفة والخيال؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية. فكل من عرف وحي السماء في آيات القرآن، ووحي الطبيعة في ألسنة الشعراء فقد عاش في نجد والحجاز وشغله الحديث عنهما زمناً ولا يزال يشغله إلى الآن.

ولهذا نعتقد أن قراء العربية يطلعون على أنباء هذه الرحلة الحجازية النجدية، وينطلقون معها في أودية الخيال، ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم، ويعجبوا مع الصحراء لركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحداء. ويطمئنوا إلى تطور الزمن حين يستمعون إلى الملك العصامي العظامي وهو يقول: "إن بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأوربيين، ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم ومتعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الأخرى.

فقد مضت عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن، بالقول والعمل، لتقليد الأوربيين، ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعاً؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك.."

فالحق إذن أن الناس ليستمعون من هذه الكلمات آية من آيات "العروبة المؤرخة" أو العروبة التي تتصل فيها الأواصر بين حاضرها وماضيها، وتتغير مع الزمن، ولكنها لا تنقطع عن حقائقها ومعانيها، فالخير كل الخير مرهون بهذه الحكمة العملية الواضحة التي تحفظ لنا خير ماعندها وتعطينا من غيرنا خير ماعندهم: قوام بين القديم والحديث، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم.

والأستاذ فؤاد شاكر شاعر ناثر. فقد استعان في وصف الرحلة بمنظومه ومنثوره، واعتمد فيها على مسموعه ومنظوره، فأحسن الوصف إحساناً لا تغض منه هفوة هنا وهفوة هناك، وأجاد تصوير الركب والزملاء، كما أجاد تصوير الضيافة الملكية في القصور وفي الصحراء، وقد رأينا مصداق وصفه فيما نظرناه وسمعناه من حفاوة المليك الجليل، وصراحته، ودوام سهره على شؤون رعيته وشؤون ضيوفه، ونعتقد أن هذه الرحلة الملكية

الرياضية ستلقى من عناية الشعراء كل ما لقيته أنباء مكة والرياض في تاريخها القديم وتاريخها الحديث. فهي حلقة موصولة من حياة "أمة مؤرخة" نرجو أن تظل أبداً في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظائم الآثار وتشترك فيه من حفاوة السابقين واللاحقين، إلى ماشاء الله.

عباس محمود العقاد